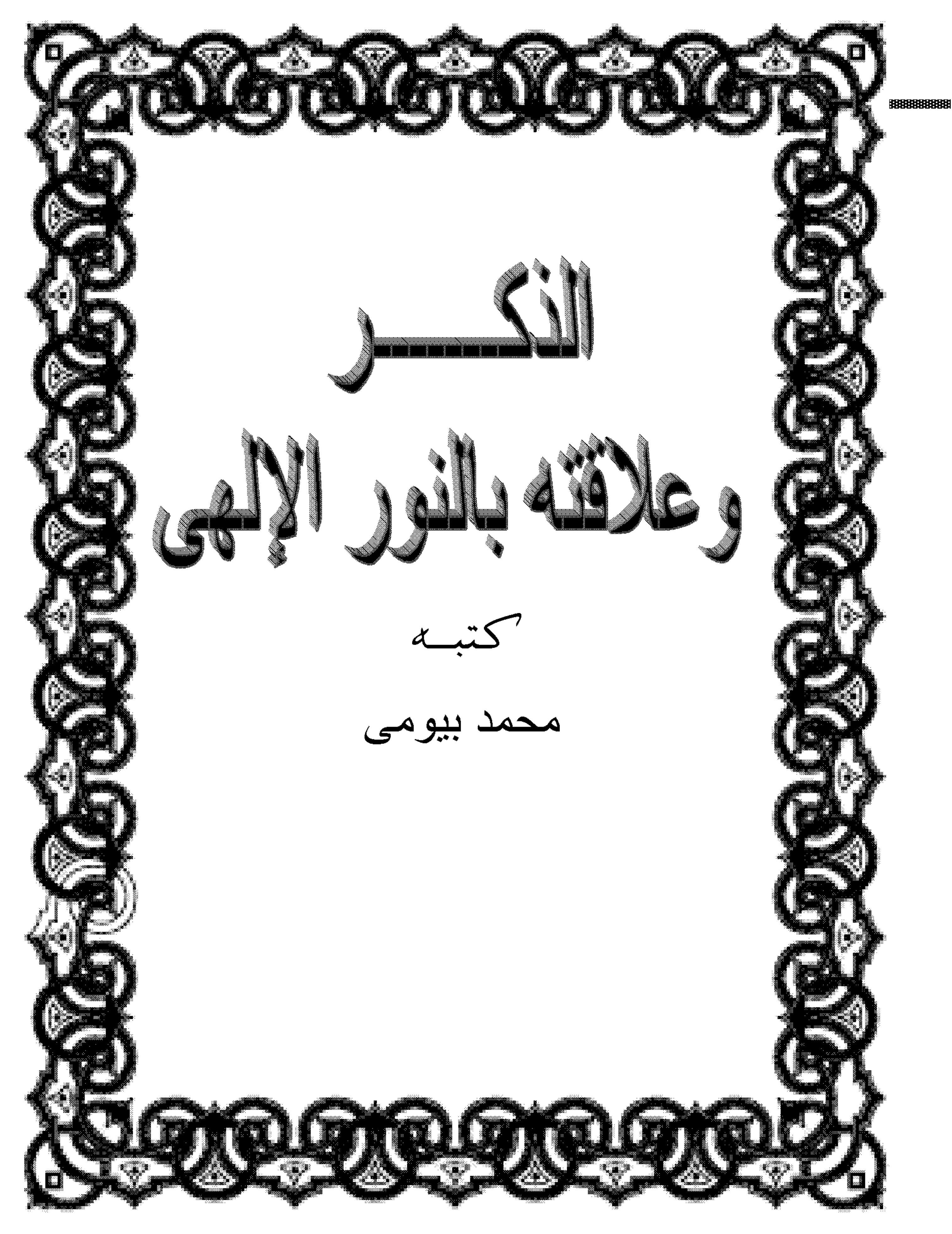


الذكـــــر
وعلاقته بالنور الإلهى

كتبــه

محمد بيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

وبعد،

فقد عقد الإمام ابن القيم - رحمه الله - فصلا رائعا فى مقدمة كتابه [الوابل الصيب من الكلم الطيب] تحدث فيه عن فوائد ذكر الله عز وجل، وقد ذكر - رحمه الله - أكثر من سبعين فائدة للذكر وأثناء قراءتى لهذه الفوائد وهى جميعها من أجمل الفوائد، غير أنى وقفت أمام فائدة جديرة بالتدبر

والتأمل وهى الفائدة (السادسة والثلاثون) فأردت إبرازها فى هذه الرسالة وتتميما لهذه الفائدة فقد قمت بتخريج آياتها وأحاديثها، والتعليق على بعض كلماتها.

ولما كانت هذه الفائدة تربط بين الذكر والنور الإلهى فقد وضعت لها هذا العنوان:

الذكر وعلاقته بالنور الإلهى

قال ابن القيم - رحمه الله وتعالى - : الذكر نور للذاكر فى الدنيا، ونور له فى قبره، ونور له فى معاده يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى، قال الله

تعالى:{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [الأنعام: 122].

فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح فى النور، والشقاء كل الشقاء فى فواته.

ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه

ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، حتى يقول: «واجعلنى نورا» [متفق عليه].

فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورا فدين الله عز وجل نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه...

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور

وجهه. ذكره عثمان الدارمى وقد قال تعالى:{وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [الزمر: 69] فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما، وحجابه تبارك وتعالى النور.

قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه، عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» [رواه

مسلم] ثم قرأ:{أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} [النحل: 8].

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره. ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ساخ الجبل فى الأرض وتدكدك ولم يقم لربه تبارك وتعالى.

وهذا معنى قول ابن عباس فى قوله سبحانه:{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام: 103] قال: ذلك الله عز وجل، إذا تجلى بنوره لم يقم له شىء. وهذا من بديع فهمه رضى الله تعالى عنه ودقيق فطنته، كيف

وقد دعا لـه رسول الله ﷺ أن يعلمـه التأويل، فـالرب تبـارك وتعـالى يـرى يـوم القيامـة بالأبصـار عيانـا، ولكــن يســتحيل إدراك الأبصـــار لـــه، وإن رأتـــه فــالإدراك أمـر وراء الرؤيــة، وهـذه الشـمس - ولله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كمـا هـى عليـه ولا قريبـا مـن ذلـك، ولـذلك قـال ابـن عبـاس لمـن سـأله وأورد عليه:{لاَّ تُدْرِكُـهُ الأَبْصَـارُ} فقـال: ألسـت تـرى السـماء ؟ قـال: بلـى قـال: أفتـدركها ؟ قـال: لا. قـال: فالله تعالى أعظم وأجل.

وقد ضـرب سبحانه وتعالى النـور فـى قلـب عبـده مثلا لا يعقله إلا العـالمون فقـال سبحانه وتعـالى:{اللَّهُ

نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَـجَرَةٍ مُّبَارَكَـةٍ زَيْتُونِـةٍ لاَّ شَـرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّـةٍ يَكَـادُ زَيْتُهَا يُضِـيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَـارٌ نُّـورٌ عَلَـى نُـورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَـن يَشَـاء وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: 35] قال أبى بن كعب: مثل نوره فى قلب المسلم.

وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبـه من معرفتـه ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نـوره الـذى أنزلــه إلـيهم فأحيـاهم بـه وجعلهـم يمشـون بـه بـين النـاس، وأصله فى قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر

علـــى وجـــوههم وجـــوارحهم وأبـــدانهم، بـــل وثيـــابهم
ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق
لـــه منكر. فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور
وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر
حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى
قلوبهم فى الدنيا فمنهم من نوره كالشمس وآخر
كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يعطى
نوراً على إبهام قدمه يضئ مرة ويطفئ مرة أخرى،
إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا فأعطى على
الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر لـــه
عيانا، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا بل

كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة وهى الكوة فى الحائط فهى مثل الصدر، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه وهى مثل القلب، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن وهى الصفاء والرقة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه

صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها، :{أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29].

وقال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159] وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة: 73] وفى أثر (القلوب آنية الله تعالى فى أرضه، فأحبها إليه وأرقها وأصلبها وأصفاها) وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان فى طرفى نقيض:

أحدهما: قلب حجرى قاس لا رحمة ولا إحسان ولا بر، ولا له صفاء يرى به الحق، بل هو جبار

جاهل: لا علم لـه بالحق، ولا رحمة للخلق.

وبإزائـه قلـب ضـعيف مـائى لا قـوة فيـه ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس لـه قوة حفظ تلـك الصـور ولا قـوة التـأثير فـى غيـره، وكـل مـا خالطه أثر فيه من قوى وضعيف، وطيب خبيث.

وفـى الزجاجـة مصـباح، وهـو النـور الـذى فـى الفتيلة، وهى حاملته.

ولـذلك النـور مـادة، وهـو زيـت قـد عصـر مـن زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده مـن الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء، بلا نار، فهذه مادة

نور المصباح.

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن هو من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة وأبعدها من الانحراف، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية ولا انحراف اليهودية، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء، فهذه مادة مصباح فى قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه، ثم خالط النار فاشتدت بها اضاءته وقويت مادة ضوء النار به، كان ذلك نورا على نور

وهكـذا المـؤمن قلبــه مضـــيء يكــاد يعـرف الحــق بفطرته وعقله ولكن لا مـادة لــه من نفسـه، فجـاءت مادة الـوحى فباشـرت قلبـه وخـالطـت بشـاشـته فـازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله تعـالى عليـه، فاجتمع لـه نور الوحى إلـى نـور الفطـرة، نـور علـى نور، فيكـاد ينطـق بـالحق وإن لـم يسـمع فيـه أثـر، ثـم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته فيكون نـورا علـى نـور، فهذا شـأن المـؤمن يـدرك الحـق بفطرتـه مجملاً ثم يسمع الأثـر جـاء بـه مفصـلا، فينشـأ إيمانـه عن شهادة الوحى والفطرة.

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة فذكر سبحانه وتعالى نوره فى السماوات والأرض، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين، النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى، فهما نوران عظيمان أحدهما أعظم من الآخر، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمى ولا غيره، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون البتة، فكذلك أمة فقد

فيها نور الوحى والإيمان ميتة وقلب منه هذا النور ميت ولابد، لا حياة له البتة، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه.

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور كما فى قوله عز وجل:{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [الأنعام: 122] وكذلك قوله عز وجل:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِْيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: 52].

وقد قيل إن الضمير فى (جعلناه) عائد إلى الأمر، وقيل إلى الكتاب، وقيل إلى الإيمان، والصواب أنه عائد إلى الروح أى جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نورا، فسماه روحا لما يحصل به من الحياة، وجعله نورا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميت مظلم كما أن المائى، والنارى. لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنور.

كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى:{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [البقرة: 17].

وقال:{ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} ولم يقل بنارهم لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق.

وكذلك حال المنافقين: ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم، قلوبهم قد صليت بحرها وأذاها

وسمومها ووهجها فى الدنيا فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على الأفئدة. فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان فى الدنيا بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به. وهو حال المنافق عرف ثم أنكر، وأقر ثم حجد، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار:{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} [الأنعام: 39].

وقال تعالى:{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 171].

وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم وصيامهم معهم وسماعهم القرآن ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره قد شاهدوا الضوء ورأوا النور عيانا.

ولهذا قال تعالى فى حقهم:{فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [البقرة: 18] إليه، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا فهم لا يرجعون إليه.

وقال تعالى فى حق الكفار:{فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} لأنهم لم يعقلوا الإسلام ولا دخلوا فيه ولا استناروا به ولا

يزالون فى ظلمات الكفر، صم بكم عمى، فسبحان من جعل كلامه لأدواء[1] الصدور شافيا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديا، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا، وإلى طريق الرشاد هاديا. لقد أسمع منادى الإيمان لو صادف آذانا واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوبا من غيها خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت

(1) أدواء: جمع داء.

بشهوات الغى وشهادة الباطل فلم تصغ بعده إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها الأسنة والسهام ، ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة وأسر الهوى والشهوة: "وما لجرح بميت إيلام".

والمثل الثانى قوله تعالى:{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ} [البقرة: 19] الصيب المطر الذى يصوب من السماء أى ينزل منها بسرعة وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك المؤمنون ذلك منه،

وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا نظر لها، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كجهاد الأعداء والصبر على الأمر أو الأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها فهى كالظلمات والرعد والبرق، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق، بل يستأنس لذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب.

وأما المنافق فإنه عمى قلبه لم يجاوز بصره الظلمة ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر، ورعدا عظيما وظلمة، فاستوحش من ذلك وخاف منه، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد، وهاله ذلك البرق وشدة لمعانه وعظم نوره فهو خائف أن يختطف معه بصره، لأن بصره أضعف من أن يثبت معه، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف، ويرى ذلك البرق الخاطف، فإن أضاء ما بين يديه مشىء فى ضوئه، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدرى أين يذهب، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض

والنبات وحياته هو فى نفسه، بل لا يدرك إلا رعدا وبرقا وظلمة ولا شعور لـه بما وراء ذلك، فالوحشة لازمة لـه، والرعب والفزع لا يفارقه، وأما من أنس بالصيب وعلم أنـه لابد فيـه من رعد وبرق وظلمـة بسـب الغيم، أستأنس بـذلك ولـم يسـتوحش منـه، ولـم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب.

فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل ﷺ مـن عنـد رب العـالمين تبـارك وتعـالى علـى قلـب رسـول الله ﷺ ليحـي بـه القلـوب والوجـود أجمـع، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق مـا يقـارن الصـيب مـن المـاء، حكمـة بالغـة وأسـباب

منتظمة نظمها العزيز الحكيم. فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده وبروقه فقط، لم يعلم ما وراءه فاستوحش بما أنس المؤمنين، وارتاب بما اطمأن به العالمون، وشك فيما يتقيه المبصرون العارفون، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش نحو الظهيرة، وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد، وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، حالت فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع فيها

مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دواوينها، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم والمحامين عن حوزتهم والمقاتلين تحت ألويتهم والمكثرين لسوادهم. ولعموم البلية هم وضرر القلوب بكلامهم هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم، ولم يزل عز وجل يقول: «ومنهم.. ومنهم.. ومنهم»[1] حتى انكشف

(1) يشير ابن القيم إلى سورة التوبة وهى السورة التى فضحت المنافقين.

أمرهم، وبانت حقائقهم وظهرت أسرارهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات، وفى أوصاف الكفار آيتين، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم، فإنهم من الجلدة، مظهرون الموافقة والمناصرة، بخلاف الكافر الذى قد تأبد بالعداوة وأظهر السريرة ودعا لك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته.

ونظير هذين المثلين المذكورين فى سورة الرعد فى قوله تعالى:{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} [الرعد: 17] فهذا هو المثل المائى شبه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب بالماء الذى أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها. ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل فيحمله السيل فيطفوا على وجه الماء فيقذف الوادى ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله تعالى به الأرض

فيحـي بـه الـبلاد والعباد والشـجر والـدواب، والغثـاء يذهب جفاء يجفى ويطرح على شفير الوادى.

فكذلك العلم والإيمان الذى أنزلـه من السـماء فـى القلـوب فاحتملـه فأثـار منهـا بسـبب مخالطتـه لهـا مـا فيها من غثاء الشـهوات وزبد الشـبهات الباطلـة يطفو فى أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى فـى جذر القلـب فـلا يـزال ذلـك الغثــاء والزبـد يـذهب جفـاء ويـزول شـيئا فشـيئا حتـى يـزول كلـه، ويبقـى العلـم النافع والإيمان الخالص فى جذر القلـب يرده النـاس فيشربون ويسقون ويمرعون [1].

(1) أى يتخذون منها المرعى.

وفى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» [متفق عليه] فجعل النبى ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات.

(الطبقة الأولى): ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملا ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات عليهم وسلامه - حقا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت فى نفسها وزكا الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة... ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم فى الدين والبصر بالتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنطبت منها كنوزها ورزقت فيها فهما خاصا،

كما قال أمير المؤمنين على أبن أبى طالب - وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه: [رواه البخارى].

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن:

(الطبقة الثانية): فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها وبذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات فاستخرجوا

غوامضها وأسرارها ووردها كل بحسبه:{قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ} [البقرة: 60] وهؤلاء هم الذين قال لهم فيهم النبى ﷺ: «نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» [رواه البخارى].

وهذا عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن مقدار ما سمع من النبى ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثا الذى يقول فيه " سمعت، ورأيت " وسمع الكثير من الصحابة وبورك فى فهمه والاستباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها. قال أبو

محمد بن حزم: وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار. وهى بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس. وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع فبدر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم:{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: 4] وهكذا الناس بعده قسمان:

(قسم حفاظ): معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا. ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما

حفظــوه. وقســم معتنــون بالاســتنباط واســتخراج الأحكام من النصـوص، والتفقـه فيهـا. فـالأول كـأبى زرعـة وأبـى حـاتم وابـن دارة. وقبلهم كبنـدار محمـد بن بشار وعمرو الناقد وعبد الرازق، وقبلـهم كمحمد بن جعفر غندر وسعيد بن أبـى عروبـة وغيرهم مـن أهل الحفظ والاتقـان والضـبط لمـا سمعوه، مـن غيـر استنباط وتصرف واستخراج من ألفاظ النصوص.

(والقسـم الثــانى): كمالـك والليـث وسـفيان وابـن المبــارك والشــافعى والأوزاعــى وإســحاق والإمــام أحمد بن حنبل وأبى داود ومحمد بن نصر المروزى - وأمثـالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلـى الروايـة -

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأسا.

وأما (الطائفة الثالثة): وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا - فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

(فالطبقة الأولى) أهل رواية ورعاية ودراية

(والطبقة الثانية) أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

(والطبقة الثالثة) الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية:{إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}

[الفرقان: 44]، فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه - مع ذلك - لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه فى الرياسة والانتصار للنفس...

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلا ثانيا وهو المثل النارى فقال:{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ} [الرعد: 17] وهو الحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذى ينفع

الناس.

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب لـه ورفع به رأسا، وحكم من لم يستجب لــه ولم يرفع بهداه رأسا فقال:{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَــهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد: 20].

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور،

والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحى والجسمى بالنور، وهو مادة الحياة كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه، وكما به حياة القلب فيه انفساحه وانشراحه وسعته، كما فى الترمذى [1] عن النبى ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «الانابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى الله

(1) الترمذى هو الحكيم الترمذى وليس الترمذى صاحب السنن والحديث ضعفه الألبانى فى " الضعيفة " (965).

تعـالى، فـإن الله تعـالى لا يصـعد إليـه مـن الكلـم إلا الطيب، وهو نور ومصدر عن النور. ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة وهـى أرواح المـؤمنين التــى اسـتنارت بـالنور الـذى أنزلــه علــى رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور.

كما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها وعـن النبــى ﷺ قـال: «خلقـت الملائكـة مـن نـور، وخلقت الشـياطين من نـار، وخلـق آدم ممـا وصـف لكم» فلمـا كانـت مـادة الملائكـة من نـور كـانوا هم الـذين يعرجـون إلــى ربهـم تبـارك وتعـالى وكـذلك أرواح المـؤمنين هــى التــى تعـرج إلــى ربهـا وقـت

قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدى الله عز وجل، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى أهل عليين، فلما كانت هذه الروح روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ولا تصعد إلى الله تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها، لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هى منه، وهذا منه مبين فى حديث

البراء بن عازب الطويل الذى رواه الإمام أحمد وأبو عوانة الإسفرائينى فى صحيحه والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح.

والمقصود أن عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه. وفى المسند من حديث عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ: «إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصاب من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل. فلذلك أقول: جف القلم على علم الله تعالى» [رواه أحمد 2 / 197 بسند صحيح]. وهذا الحديث العظيم أصل

من أصول الإيمان، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته، والله تعالى الموفق.

وهذا النور الذى ألقاه عليهم سبحانه وتعالى هو الذى أحياهم وهداهم، فأصبت الفطرة منه حظها. ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله أكمله لهم وأتمه بالروح الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام والنور الذى أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذى حصل لها يوم إلقاء النور، فاضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة، نور على نور، فأشرقت منه القلوب، واستنارت به

الوجوه، وحيت بـه الأرواح، وأذعنـت بـه الجـوارح للطاعات طوعا واختيارا، فازدادت بـه القلوب حيـاة إلـى حياتهـا. ثم دلهـا ذلك النـور علـى نـور آخـر هـو أعظـم منـه وأجـل وهـو نـور الصـفات العليـا الـذى يضمحل فيه كل نور سواه، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلـب نسبة المرئيات إلـى العين ذلك لاستيلاء اليقين عليها وانكشـاف حقائق الإيمـان لهـا، حتـى كأنهـا تنظـر إلـى عـرش الـرحمن تبـارك وتعـالى بـارزا وإلـى اسـتوائه عليـه كمـا أخبـر بـه سبحانه وتعالى فى كتابه وكما أخبر بـه عنـه رسوله ﷺ يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى، ويخلق ويـرزق،

ويميت ويحـي، ويقضـى وينفذ ويعز ويـذل ويقلـب الليـل والنهـار، ويـداول الأيـام بـين النـاس، ويقلـب الـدول فيـذهب بدولـة ويـأتى بـأخرى، والرسـل مـن الملائكـة علـيهم الصـلاة والسـلام بـين صـاعد إليـه بـالأمر ونـازل مـن عنـده بـه، وأوامـره ومراسـيمه متعاقبة على تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كما شاء فى الوقت الذى يشاء على الوجه الـذى يشاء، من غير زيادة ولا نقصـان لا تقدم ولا تـأخر، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات وأقطارها، وفـى الأرض وما عليها ومـا تحتهـا، وفـى البحـار والجـو، وفـى سـائر أجـزاء العـالم وذراتـه، يقلبهـا ويصـرفها

ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا، ووسع كل شىء رحمة وحكمة، ووسعه سمعه الأصوات فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه. بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح ذوى الحاجات وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر، فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه

ما لم يخطر بعد فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا، وله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شىء ووسعت رحمته كل شىء وسعت نعمته إلى كل حى:

{يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: 29] يغفر ذنبا، ويفرج هما، ويكشف كربا، ويجبر كسيرا، ويغنى فقيرا، ويعلم جاهلا، ويهدى ضالا، ويرشد حيران، ويغيث

لهفان، ويفك عانيا، ويشبع جائعا، ويكسو عاريا، ويشفى مريضا، ويعافى مبتل، ويقبل تائبا ويجزى محسنا، وينصر مظلوما ويقصم جبارا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن من روعة، ويرفع أقواما ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور: لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ويمينه ملأى لا تغيضها [1] نفقة، سحاء

(1) لا تغيضها: غاض الماء أى جف.. أى تعوزها وتفقرها النفقة.

الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما فى يمينه.

قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره. الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، يقبض سماواته كلها بيده، الكريمة والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يسألها أن يعطيها. لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأول خلقه

وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا، ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام، والبحر - وراءه سبعة أبحر تمده من بعده - مداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفذ المداد ولم

تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى، وكيف تفنى كلماته عز وجل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟

هو الأول الذى ليس قبله شىء، والآخر الذى ليس بعده شىء، والظاهر الذى ليس دونه شىء، والباطن الذى ليس فوقه شىء، تبارك وتعالى أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأولى من شكر، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم. حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته،

ومغفرتـه عـن عزتـه، ومنعـه عـن حكمتـه، ومـوالاتـه عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليـــه حـــق واجـب

كـــلا ولا سعـــى لديـــه ضائـــع

إن عذبـــوا فبعدلـــه أو نعمـــوا

فبفضله، وهو الكريم الواسع

وهـو الملـك لا شـريك لـــه، والفـرد فـلا نـد لـه، والغنـى فـلا ظهيـر لـــه والصـمد فـلا ولـد لـــه، ولا صـاحبة، والعلـى فـلا شـبيه لـــه ولا سـمى لـــه، كـل

شـىء هالـك إلا وجهـه، وكـل ملـك زائـل إلا ملكـه، وكـل ظـل قـالص إلا ظلـه، وكـل فضـل منقطـع إلا فضله لـن يطـاع إلا بإذنـه ورحمتـه، ولـن يعصـى إلا بعلمـه وحكمتـه. يطـاع فيشـكر، ويعصـى فيتجـاوز ويغفـر. كل نقمـة منـه عدل، وكـل نعمـة منـه فضـل. أقرب شهيد، وأدنى حفيظ. حال دون النفوس، وأخذ بالنواصـى، وسـجل الآثـار، وكتـب الآجـال، فـالقلوب لـه مفضـية، والسـر عنـده علانيـة، والغيـب عنـده شـهادة. عطـاؤه كـلام، وعذابـه كـلام:{إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82].

فـإذا أشـرقت علـى القلـب أنـوار هـذه الصـفات

اضمحل عندها كل نور ووراء هذا ما لا يخطر بالبال ولا تناله عبارة. والمقصود أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء، وهو نور العبد فى دنياه وفى البرزخ وفى القيامة.

وعلى حسب نور الإيمان فى قلب العبد تخرج أعماله وأقواله ولها نور وبرهان، حتى أن المؤمن من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل، وهكذا يكون نور وجهه فى القيامة، والله تعالى المستعان وعليه الاتكال.

* * * * * * * *